نحسه في أيدينا انتصارا صغيرا يذوب ويفقد توهجه ، انت يا درع البؤساء الوهمي ، ما الذي فعلته بنا ؟

كنت درعنا وكنا نحسب انك تحمينا من طعن رماح الزمن الذي نخوض في غماره ونسبح بين انصالها ، وحين أطرحناك عرفنا اننا لم نكن نخوض في غابة الزمن ، وكنا واقفين على ضفته واهمين ، متمسكين بذلك الدرع الذي هو انت وكأن القتال في اوجه .. الآن نحن بلا درع ، ولكننا نخوض في شوك الزمن وفي ناره وفي أمديته ، بصدور مشرعة عارية تطعم لحمها لذلك الارتطام المخيف مع المجهول .

فأعطنا يا عبد العاطي ، ايها الولي النائم تحت بلاطة النسيان ، في البرية التي تعوي فيها الغربة ، القدرة على أن نكرهك ، فقد تيقنا ان موتك لا يكفي ، وانه انتصار يذوب مع الايام ولا نستطيع ان نعتاش على مذاقه الذي كان له ، ذات ليلة ، طعم القضاء والقدر .

فاعطنا ، ايها الولي الذي صرفت من اعمارنا عمرا اضافيا لك ، القدرة على أن نكرهك بكل وشيجة من وشائج قلوبنا ، فليس أمامنا ، بعد ، الا أن نحييك بالكراهية ، كي نقتلك مرة أخرى . فكما صرفت أنت من أعمارنا كي تعيش ، لا نستطيع الا أن نصرف من موتك ، كي نمحوك تماما من حياتنا ، ثم نرتقي فوقك .

— ١٣ —

كان يوما مترعا بالضجر حتى قرارته ، لكأن الناس كفوا عن شراء الخبز لسبب غامض لا يفهم ، وكنت جالسا هناك على باب الفرن ، غارقا في تأملاتي ، حينما جاء حمدان يلهث من الداخل ، وكانت رائحة العرق تفوح من صدره العاري وتملأ المكان ، وقد عرفت انه أراد الكلام ، فتلك هي عادته حين كان يعتزم مفاتحتي بأمر يشغل باله ، وكنت أحسب انه يريد انهاء ذلك الخلاف ، بيني وبينه ، حول منزلة الولي عبد العاطي ، اذ أنني لم أكن اعرف ان هناك ما يشغل باله في هذه الايام اكثر من هذا الموضوع ، الا ان ظني خاب تماما فقد تنهد ، ثم قذف جملته دفعة واحدة مثلما يرمي المرء صندوقا ثقيلا عن ظهره :

— « لقد عاد والدي » .

وأخذت بهدوء امتص الصدمة حين لطمتني هذه العبارة القصيرة دون توقع مني ، ورغم انني كنت طوال السنوات الماضية على يقين من أن ابا حمدان ، الذي لم اعرفه قط الا من خلال أحاديث قصيرة متقطعة مع حمدان ، لا بد له أن يعود يوما ، الا انني أبدا لم أتصور ذلك يحدث على هذه الصورة ، بل انني لم أتصوره يحدث على أية صورة ، فقد كنت اتوقع حدوثه ، ليس غير .

وعاد حمدان يكرر عبارته ، بعد أن تصور انني لم اسمعها :

— « لقد عاد والدي . أطلقوا سراحه أمس » .

ولا ريب ان حمدان لاحظ كيف انتفضت ، اذ انه لم يقل لي قط ان والده كان محبوسا ، وبدا لي لوهلة ان هذا الفتى الذي عشت معه عشر سنوات كاملة احتفظ لنفسه طوال تلك السنوات بحياته الخاصة ، ولم يسمح لي بالتعرف الا على اجزاء يسيرة منها ، الا انني حاولت ان ابدو طبيعيا ، وقلت له :

— « هل انتهت مدة حبسه ؟ »

— « لا كان محكوما بالحبس المؤبد . دخل السجن قبل نحو ١٢ سنة ، وكان عمري سبع سنين ، وربما ثماني . لقد أخذوا منذ شهور قليلة يطلقون المحابيس الذين مثله ،